٧ – نهاية مرحلة الصراع

٣١ يوليو ١٩٧٨ :

كتب كارتر فى مذكراته فى هذا اليوم يقول :

" وجدت نفسى فى وضع غير مريح بشكل فريد . لقد كنت مقتنعا من جهة بأن السلام فى الشرق الأوسط هو ضرورة حيوية بالنسبة للولايات المتحدة ، وأعلم أنه علىّ أن أفعل شيئاً ما ، لكن كنت أجهل ماهية هذا الشىء . وكنت متضايقا – من جهة أخرى – من الديمقراطيين فى الكونجرس ومن زعماء الحزب ، فإنهم يضغطون علىّ لأتحرر من التزاماتى وأسد الثغرة – حسب رأيهم – فى العلاقات الإسرائيلية الأمريكية ، وهو اتهام كان يبدو لى مثيراً للسخرية بشكل فريد ، لأنه يأتى فى الوقت الذى انصرفت فيه بكل همى إلى تأمين أفضل الضمانات لإسرائيل بتعزيزى لعلاقاتنا مع أورشليم (القدس) .

وكان كل من بيجن والسادات ، كل حسب طريقته الخاصة ، قد استنفد كل ما فى جعبته . ولم يكن لديهما ، حتى لو قبلا أن يلتقيا ، أية فرصة للتوصل إلى اتفاق نظراً لعظم المسافة التى تفصل بينهما . وكان علىّ من أجل الخروج من هذا التيه أن ألعب بالكل ليربح الكل ، وهو حل لم يكن مريحا إضافة إلى كونه خطراً ، لكننى لم أكن أملك غيره : كان علىّ إقناع رئيس الوزراء الإسرائيلى والرئيس المصرى بقبول التفاوض تفاوضاً شاملاً ، أكون فيه أنا المنظم والحكم فى آن واحد .

قررنا إرسال فانس إلى الشرق الأوسط ليدعو السادات وبيجن إلى اللقاء فى كامب

ديفيد . وكنا واعين للمخاطر التى نتعرض لها ، ولكن الوضع كان يزداد مع الوقت إقلاقاً ، وكنت أخشى أن يفجر السادات أزمة فى شهر أكتوبر كما سبق،ولوح مهدداً بذلك مرات عديدة . فإن العرب يضغطون عليه ، ولا يستطيع التعرض لضغطهم أطول مما فعل . وقد أصبح ملزماً الآن إما أن يلتحق بهم أو يوجد لنفسه مخرجاً من جانب آخر " .

واستطرد كارتر فى تسجيل مذكراته ، موضحاً أنه أرسل الدعوة إليهما مع فانس فى رحلة قام بها للشرق الأوسط . قبل الرجلان دعوة كارتر بحماس ، وطلب السادات أن يكون اللقاء فى شهر سبتمبر عقب انقضاء الأعياد الإسلامية . وتقرر إعلان الخبر فى الثامن من أغسطس بإذاعته من العواصم الثلاث فى وقت واحد .

اليوم الأول فى كامب ديفيد (٥ سبتمبر ١٩٧٨) :

كان كارتر فى انتظار وصول السادات بعد ظهر الثلاثاء ٥ سبتمبر ١٩٧٨ . كتب :

« وفيما نحن ننتظر الرئيس المصرى ، أجريت جولة فى الأفق على الوضع ... كان واضحا أن السادات راغب فى التوصل إلى اتفاق شامل ، فى حين أن بيجن كان يرغب فيه محدوداً بكل تأكيد .

لقد كان يحترم قوة بيجن وشجاعته ، ولم يكن يوليه الثقة مطلقاً . ولهذا ، ونظراً لكونه مصمماً أشد التصميم على النجاح فقد كانت لهفته الأقوى ، لا أن يرانى فى صفه وإنما أن أقنع له بيجن . كان هدفه الأول هو التأكيد على أن يوقع اتفاقا مباشرا مع إسرائيل ، لكنه كان يعتبر أنه إن لم يتوصل إلى ذلك فيكون الوصول إلى اتفاق معى بمثابة انتصار مماثل ، الأمر الذى لا يستطيع بيجن أن يرفضه دون أن يلقى أشد الادانة .

وصلت طائرة السادات بعد الرابعة والنصف بقليل .

ولدى جلوسنا فى الشرفة الخلفية فى منزلى الريفى ، دخل فى الحديث دون مقدمات . وقال لى مباشرة إنه لم يأت إلى هنا إلا للتوقيع على السلام ، وليس للاعداد لمفاوضات أخرى ، وأنه يعتبر بيجن غير راغب رغبة حقيقية فى السلام ، وانه سوف يعمل كل ما بوسعه من أجل الوقوف فى وجه أية محاولة لتأخير التوصل إلى السلام .

ثم أضاف أن لديه – فى جيبه – خطة شاملة ، وأنه على استعداد لتقديم التنازلات فى كل النقاط ما عدا نقطتين اثنتين وهما : استعادة الأرض والسيادة العربية .

وأوضح أنه مستعد لتضمين معاهدة السلام ، نصا على إقامة علاقات دبلوماسية بين مصر وإسرائيل ، وعلى إنهاء المقاطعة الاقتصادية معها ، شرط أن يتفاوض بيجن بنية طيبة الأمر الذى يبدو له قليل الاحتمال . وطلب أن تنسحب إسرائيل من كل الأراضى المصرية ، وأن يشتمل الاتفاق النهائى فى حالة الوصول إليه ، على بنود تتعلق بالفلسطينيين والضفة الغربية وتتعلق بالمفاوضات بين الإسرائيليين وجيرانهم الآخرين . وذلك ما ترك لى أمر تحديده بالتفصيل » .

□ □ □

استقبل كارتر بعد ذلك بساعتين مناحم بيجن ، وسارا معا إلى منزله الريفى ، وبدأ العمل بعد العشاء . ويسجل كارتر فى مذكراته عن هذه المقابلة يقول :

« لفت بيجن نظرى إلى أنه لم يسبق عقد اتفاق بين مصر والأمة اليهودية منذ ما يزيد على ألفى سنة ، وبأن مؤتمرنا هو حدث تاريخى لم يسبق له مثيل . وكان على العكس تماما من السادات ، يريد تضييق أهداف المؤتمر ، ويقف بها عند حدود التفاهم على المبادىء العامة التى من شأنها أن تستخدم قاعدة ترتكز إليها المفاوضات اللاحقة والتى يلتقى فيها وزراء الخارجية والدفاع من الدولتين ويتفاوضون بشأن النقاط التى تظل موضع النزاع .

عارضت هذه الفكرة بشدة ، وأوضحت له أننا إذا لم نصل إلى قرار الاتفاق فى كامب ديفيد فإن أحدا من مساعدينا لن ينجح فى ذلك بعدنا ، وعلينا بالتالى أن نهيىء أنفسنا للتصدى ، وفى آن واحد ، للموضوعات الحساسة جميعها ، لا أن نتهيأ لاجتنابها .

□ □ □

واستغرق العمل فى كامب ديفيد ١٣ يوماً انتهى يوم الأحد ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ بالاحتفال بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد فى واشنطن ، وهو الاحتفال الذى شاهده الملايين من الناس على التليفزيون مباشرة .

كنا جميعا فى مصر فى لهفة لمعرفة محتويات هذه الاتفاقية من النص الرسمى لها . وكان الخبر الذى استرعى الانتباه فى تلك الفترة هو استقالة وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل الذى كان عضوا فى المفاوضات، والأسباب التى جعلته يقدم استقالته أثناء وجوده فى أمريكا قبل توقيع الاتفاقية .

لقد كانت اتفاقية كامب ديفيد هى نهاية مرحلة من مراحل الصراع فى الشرق الأوسط .

فعلى المستوى الدولى حسم الصراع بين القوتين الأعظم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية ، هذا الصراع الذى انفجر فى عام ١٩٥٦ وبلغ الذروة فى عام ١٩٦٧ وحسم فى عام ١٩٧٨ .

وعلى المستوى العربى أدت هذه الاتفاقية إلى خروج مصر من ساحة الصراع العربى الإسرائيلى الأمر الذى يضعف موقف الدول العربية — سياسياً وعسكرياً — فى هذا الصراع ويعطى لإسرائيل الموقف الاستراتيجى الأقوى فى المنطقة ويتيح لها حرية العمل لابتلاع باقى فلسطين فى المرحلة الحالية والتوسع على حساب الأرض العربية المجاورة فى المراحل التالية .

وعلى المستوى الوطنى ، فإن هذه الاتفاقية ، و ما تلاها من معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ، قد أعادت لنا سيناء بقيود شديدة تضع إسرائيل فى الموقف العسكرى الاستراتيجى الأقوى ، ووضعت نهاية لمرحلة من مراحل الصراع بين مصر وإسرائيل . هذه المرحلة التى بدأت بحرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم زيارة القدس ١٩٧٧ وانتهت باتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ .

وقد كان واضحا بعد إعلان الاتفاقية — ثم المعاهدة بعد ذلك — بنصوصها أن هناك مرحلة جديدة فى تاريخ هذه المنطقة قد بدأت . مرحلة لها انعكاساتها العميقة فى صراع القوتين الأعظم على الشرق الأوسط ، ولها انعكاساتها فى الوطن العربى ، ولها نتائجها ومتطلباتها ، ولعل أهمها تغيير نظام الأمن فى المنطقة ليكون « نظام الأمن فى الشرق الأوسط » تلعب فيه الولايات المتحدة الأمريكية الدور الرئيسى .

وبعد أسبوعين من توقيع اتفاقية كامب ديفيد ، قال لى الرئيس الراحل السادات لقد بدأت مرحلة جديدة فى مصر تستدعى تغييراً شاملاً فى أجهزة الدولة .